العدد19A1 كانون الاول 2025
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
No.19A1 Dec 2025
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

مبادئ الحوار في الخطاب القرآني / الاستراتيجيات

أ . م . د حمد عدل ناصر
جامعة المثنى / كلية التربية الأساسية

Principles of dialogue in Qur'anic discourse / Strategies

Dr. Hamed Adil Naser
University of Al-Muthanna / College of Basic Education
E-mail: hamed.a.naser@mu.edu.iqu.iqAbstract:

المستخلص

تناولت في هذا البحث المسمى (مبادئ الحوار في الخطاب القرآني / الاستراتيجيات) استراتيجيات الخطاب القرآني التي تحصل من خرق قواعد التخاطب ، ثم عرَّفتُ بقواعد التخاطب (الكم ، الكيف ، الملاءمة ، الجهة) ، ثم قسمت البحث على أربعة محاور متمشيا مع هذه القواعد التداولية الأربع ، وتناولت في كل محور منها الاستراتيجيات التي ينتهجها الخطاب القرآني التي تحصل من خرق قواعد التخاطب ، ثم النتائج التي توصل إليها البحث .

الكلمات المفتاحية : قواعد التخاطب ، الاستراتيجيات ، خرق القواعد .

Abstract:

In this research entitled (Principles of Dialogue in Qur'anic Discourse / Strategies), I dealt with the strategies of Qur'anic discourse that result from violating the rules of communication. Then I defined the rules of communication (quantity, quality, suitability, direction). Then I divided the research into four axes in line with these four pragmatic rules, and in each axis I dealt with the strategies adopted by Qur'anic discourse that result from violating the rules of communication, then the results that the research reached.

Keywords: Rules of communication, strategies, breaking the rules.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعد ، جاء هذا البحث المسمى (مبادئ الحوار في الخطاب القرآني / الاستراتيجيات) محاولة من الباحث لمقاربة المنهج التداولي الحديث ، وتحديدا قواعد التخاطب ، وهي قواعد متفرعة عن (مبدأ التعاون) التداولي ، المبدأ الذي اشترطه (بول غرايس) لإنجاح عملية التفاهم بين طرفي الخطاب ، ثم عرَّفتُ بقواعد التخاطب (الكم ، الكيف ، الملاءمة ، الجهة) ، ثم قسمت البحث على أربعة محاور متمشيا مع هذه القواعد التداولية الأربع ، وتناولت في كل محور منها (الاستراتيجيات) التي ينتهجها الخطاب القرآني التي تحصل من خرق قواعد التخاطب ، مستفيدا في هذا من أبرز مصادر التداولية ، وأمهات كتب التفسير ، مقاربا في ذلك بين المنهج التداولي الحديث وآراء كبار المفسرين في الوقوف على استراتيجيات الخطاب القرآني .

مبادئ الحوار

مبادئ الحوار : هي مفهوم تداولي ، وهي القواعد التي فرَّعها (بول غرايس) على مبدأ التعاون ، وهي تصلح كنماذج إجرائية توجه طرفي الحوار إلى الطرق التي يمكنهم سلوكها أثناء التخاطب ، وهي

قواعد تُعنى بجانب الخطاب التبليغي دون التهذيبي [١] ، ولاتكتمل عملية التواصل الناجح إلا بالأخذ بمبدأ التعاون (cooperative principle) مضافا إلى الملفوظ ، والسياق [٢].

كانت البداية الأولى للعمل على قواعد التخاطب ، والتأسيس لها من الفيلسوف الأمريكي (بول غرايس) ، وهو من فلاسفة اللغة الطبيعية ، وإن كانت أفعال الكلام غير المباشرة لـ (جون سيرل) تعد الأرضية التي بنى عليها (غرايس) قواعده [٣] ، فكان (غرايس) يهدف إلى وضع قواعد تضبط أفعال الكلام غير المباشرة انطلاقا من ملاحظته أن المتكلم قد يقول شيئا وهو يقصد غيره ، (إنا قد نقول شيئا ونحن نقصد غيره) ، فوضع مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه ، أو المبادئ الثانوية ـــ كما يطلق عليها (جورج يول) ـــ ، وهذه القواعد هي: [٤]

١ـــ قاعدة الكم

هي قاعدة تعالج كمية الإخبار الذي ينبغي الالتزام به ، فهي تارة توجه المتكلم بأن يجعل مشاركته تفيد القدر المطلوب من الاخبار ، وفي الوقت ذاته توجهه بأن لايجعل مشاركته تفيد أكثر مما هو مطلوب ولا أقل منه ، وأما مقدار المحادثة فيحددها السياق ، وفي حال حصول خرق من قبل المتكلم لهذه القواعد مع كونه متعاونا يذهب المتلقي إلى البحث عن الاستراتيجيات التي دعت المتكلم إلى الخروج عن محددات قواعد التخاطب ، وأن هذا الخرق قد حصل بدافع التأثير بالمخاطب[٥]، بمعنى أن للمتكلم استراتيجيات وراء ما يحصل من انتهاك هذه القواعد .

وبعد التتبع لبعض الخطابات في القرآن الكريم وكيفية معالجتها من قبل المفسرين وجدت كثيرا منها يتمشى مع استراتيجيات المرسل التي تحصل فيما لو حصل خرق لإحدى القواعد الأربع : (الكم ، الكيف ، الملائمة ، الجهة) ، وهذه الاستراتيجيات هي :

استراتيجية الكم

تحصل هذه الاستراتيجية عندما يخرق المتكلم (قاعدة الكم) هذه القاعدة التي تمثل حدا دلاليا يقصد منها ضبط مساحة التلفظ لدى المتكلم دون أن يزيد أو ينقص من مقدار كمية الملفوظ التي يحددها السياق ، وتتفرع قاعدة الكم على فرعين يمثلان توصيتين للمتكلم هما [٦] :

أ ـــ لتكن إفادتك للمخاطب على قدر حاجته ، أي : ينبغي على منشئ الخطاب التقييد بالقدر من الكلام الكافي على إيصال قصديته إلى المخاطب .

ب ـــ لاتجعل إفادتك غير قادرة على حمل مقاصدك بسبب التقليل منها .

ولهاتين القاعدتين الفرعيتين أمثلة تطبيقية في الخطاب القرآني ، فمن أمثلة القاعدة الفرعية الأولى (أ) من فرعي قاعدة الكم الذي يعني أن لاتتوفر مساهمة المتكلم على أكثر مما هو مطلوب [٧] .

١ـــ ما ورد في سورة الروم تحديدا في الآيتين : ٣٢،٣١ ، إذ يقول تعالى : ((وَلاَ تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ . مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا)) ، كم الخطاب يحصل في قوله ((وَلاَ تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) ، ولكن تفسير المشركين بقوله (من الذين فرقوا ....) فيه خرق لقاعدة الكم زيادة على كمية الخطاب المحددة سياقيا ، وهو استراتيجية تداولية تشير إلى المبالغة في التأكيد على لزوم الجماعة وعدم التفرق والتناحر[٨].

٢ـــ ومن خرق قاعدة الكم بمعناه الأول (أ) ما جاء في سورة البقرة إذ يقول :﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ (...) ٨٥ ◯ (...) فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٨٦ ◯ ﴾ [البقرة: ٨٥-٨٦] . خرق القاعدة في قوله : (فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ) . فكان جزاء عملهم الذي هو (يؤمنون بعض الكتاب ويكفرون ببعض) هو (خزي في الحياة الدنيا وفي يوم القيامة أشد العذاب) ، إلى هنا قد اكتمل كم الإخبار ، ولكن بما

أنه سبق أن أخبر عنهم بأنهم يؤمون ببعض الكتاب ويؤمنون ببعض وهذا قد يوهم بأن الإيمان الجزئي قد يخفف عنهم العذاب على قدر إيمانهم ، فقصد إلى دفع هذا التوهم بقوله (فلا يخفف عنهم العذاب ...) ، فكانت الاستراتيجية من خرق قاعدة الكم هي دفع توهم ما لم يكن مقصودا ، فمن مبدأ (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره) يسبق الى الذهن أن هذا الايمان الجزئي قد يؤدي الى تخفيف العذاب ، فقال (لا يخفف عنهم العذاب) . وقد أشار الى هذا المعنى (ابو العباس البسياني التونسي (ت ٨٣٠ هـ) ، إذ قال : " ولمَّا كان قد يُتوهم أن إيمانَهم بالبعض قد يخفِّف عنهم العذاب، ذكَر جزاءَهم بصيغة الحصر، وإنْ كان عدمُه في مثل هذا التركيب أبْلغَ " [٩] .

وهنا أمثلة للقاعدة الفرعية الثانية (ب) التي توصي بأن يكون الكلام على قدر مايحتاجه السياق [١٠] .

ومن خرق هذه القاعدة ما حصل في قوله تعالى (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ) الأنفال/ آية ٣٣ ، حصلت مخالفة قاعدة الكم في الملفوظ (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ) فالخرق حصل بالأقل ؛ إذ السياق يقتضي (وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون) ، بالفعل المضارع المقرون باللام ، لما في الفعل من الدلالة على الحدوث والتجدد ، ولكن في هذا النص القرآني حصل خرق ، لقصد اشعار المخاطب بعدم التساوي بين حماية الرسول من العذاب وحماية الاستغفار ، فبتقليل كم الخطاب تبين للمتلقي أن الاستغفار وإن يشكل حماية من العذاب ولكنها لم ترقَ إلى الحماية التي يوفرها وجود النبي ، فعبر عن الأثر القليل بالنص القليل . [١١] وقد ذهب إلى هذا التوجيه الآلوسي في روح المعاني ؛ إذ يرى أن وجود النبي صلى الله عليه وسلم - (فيهم)، أقْوى في دَفْعِ العذاب من استغفارهم، فأتى في الأول بالنفي الأخَصِّ ، يعني الأقل ، فوجود النبي أكثر ضمانا من فعل الاستغفار . [١٢] ، وقد كثر كلام المفسرين في التوجيهات ؛ وما ذلك إلا لمخالفة قاعدة (الكم) التي أصل لها بول غرايس كمنهج ينظم عملية التخاطب ، ويوجهها توجيها تداوليا .

٢ـــ قاعدة الكيف

قاعدة الكيف تلزم المتكلم بأن لايتلفظ بشئ وهو يعتقد أنه غير مصيب لمضمون النص ، أو أنه لايستطيع البرهنة على صدقه ، وإن لم يدَّعِ التداوليون كلية هذه القاعدة ، وذلك لإمكانية التخلي عنها فيما إذا حصل تعارض بينها وبين قاعدة الكم ، فحينئذ ترجح الأخيرة عليها[١٣] .

استراتيجية الكيف

ويقصد بها الاستراتيجيات التي تنشأ من خرق قاعدة الكيف ، ولها أمثلة تطبيقية في القرآن الكريم .

١ـــ من أبرز أمثلة خرق قاعدة الكيف في الخطاب القرآني تلك الردود التي يتبناها الكفار في تكذيبهم الأنبياء ، نذكر منها قوله تعالى نقلا عن لسان منكري البعث وهم يخاطبون النبي بلسان التكذيب للبعث ويلزم منه تكذيبا للنبي ، بناء منهم على أن النبي قد خرق قد خرق قاعدة (الكيف) التداولية وأنه جاء بخبر مخالف للصدق ، أو أنه لايملك دليا على إثباته ـــ بزعمهم ـــ ، فأخبر القرآن الكريم عنهم بقوله : (وقالوا أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً [أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)، فالقرآن يخبر عن المشركين إنكارهم البعث بعد الموت ، [١٤] ، فذلك العذاب هو جزاء كفرهم بآيات الله وتكذيبهم بالبعث والنشور وقولهم أئذا أصبحنا عظاماً نخرة ، وذرات متفتتة سنُخلق ونبعث مرة ثانية؟ [١٥] .

٢ـــ ومن أمثلة خرق قاعدة الكيف ماورد في سورة الإسراء ، آية (٦٠) ، إذ يقول : ((وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا)) ، معلوم أن خرق قاعدة الكيف أن يأتي المتكلم بملفوظ لايثبته بدليل أو أنه مخالفة للواقع ، وهذا الخرق حصل هنا ولكن باعتبار من المخاطبين وأنهم يرون ـــ بتصورهم ـــ أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أتى بهذا الكلام ولايستطيع اثباته بدليل ، قائلين : كيف ينبت الشجر في النار والواقع أن

النار تحرق الشجر ؟ ، يقول الطبري في تفسيره : " حتى قال قائلُهم أبو جهلِ بنُ هشامٍ: زعَم صاحبُكم هذا أنَّ في النارِ شجرةً، والنار تأكلُ الشجرَ، وإنا واللهِ ما نعلمُ الزَّقومَ إلا التمرَ والزُّبدَ، فتزقَّموا " ... " ، بقولها تهكما ، واستخفافا بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فأنزَل اللهُ تبارك وتعالى حين عَجِبوا أن يكونَ في النارِ شجرةٌ ، فقال : (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) [الصافات: ٦٤، ٦٥]. قائلا لهم : إنى خلَقْتُها من النارِ، وعذَّبتُ بها من شِئْتُ من عبادي " . وهذا يعبر عن استراتيجية مؤداها افتتان الكفار بعد أن استيأس النبي من هدايتهم ، فسلك مسلك التنكيل والافتتان ، ولذلك عقب هذا الكلام بقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ٦٠﴾ [الإسراء: ٦٠]). ثم فسر لهم هذا الذي استبعدوه بقوله : (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} الصافات: ٦٤، ٦٥ إنى خلَقْتُها من النارِ، وعذَّبتُ بها من شِئْتُ من عبادي ([١٦]).

٣ـــ قاعدة الملائمة

قاعدة الملاءمة تلزم المتكلم بأن تكون مشاركته في الحوار مقاربة للسياق وملائمة له ، فكلما استطاع السياقُ الكشفَ عن المشاركة في بيئة الحوار بصورة جلية ، كلما اتصفت هذه المشاركة بالملائمة والصلة بموضوع الحوار [١٧] ، فالقاعدة تمثل توجيه للمتكلم بضرورة الحفاظ على مناسبة الكلام للمقام والسياق الذي دخلَ فيه .

استراتيجية الملائمة

هي استراتيجية تحصل من خرق قاعدة الملائمة الذي يؤسس لاستراتيجيات لايمكن الحصول عليها إلا بمعونة تداولية الخرق ، ومن أمثلة خرق هذه القاعدة :

١ـــ ماجاء في سورة يوسف آية ٣٧ في قوله تعالى : ((إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)) ، السياق ـــ هنا ـــ هو طلب تفسير الرؤيا من قبل صاحبي السجن فذكر أحدهم أنه يعصر خمرا ، وذكر الآخر أنه رأى نفسه يحمل خبزا فوق رأسه ، وكان المتوقع من النبي (عليه السلام) إجابتهما عن تسائلهم ، لكي يكون الجواب منسجما مع السياق الذي هو طلب تفسير الرؤيا ، ولكنه لم يجبهما ، بل أخذ يحدثهما : كونه ترك ملة القوم الذين لايؤمنون بالله ... وفي هذا الخطاب خرق لقاعدة ، إذ لم يطابق الجوابُ السؤالَ ، وهذا لم يأتِ عن فراغ فيما إذا تبين أن المتكلم في أقصى مستويات التعاون ، فيكون هنا قد خرق قاعدة الملائمة [١٨] . وكانت هذه إحدى الاستراتيجيات التي سلكها النبي يوسف (ع) لإبلاغ رسالته في دعوة أهل مصر إلى الإيمان بالله سبحانه ، فتحدث عن ملة قومه الكنعانيين بهذه الصفات تعريضا منه " بالقِبْط الَّذِينَ مَاثَلُوهُمْ فِي الْإِشْرَاكِ. وَأَرَادَ بِهَذَا أَنْ لَا يُوَاجِهَهُمْ بِالتَّشْنِيعِ اسْتِنْزَالًا لِطَائِرِ نُفُورِهِمْ مِنْ مَوْعِظَتِهِ " ([١٩]) ، وهذا السلوك في الحوار يَعُدُّه التداوليون عدولا من قاعدة الكم إلى مبدأ التأدب (*) ، هذا المبدأ الذي عُدَّ مكملا لمبدأ التعاون ([٢٠]) . فلو التزم بقاعدة الملاءمة بجعل جوابه مطابقا للسؤال الذي يتمثل في تفسير رؤية صاحبي السجن لترك فرصة مناسبة لتبليغ رسالته في الدعوة إلى التوحيد .

٢ـــ ومن الخطابات القرآنية التي انتهجت مسلك خرق قاعدة الملائمة قوله تعالى :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ... وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ١﴾ [النساء: ١ ، فالخطاب موجه إلى الناس بصورة عامة ، فقال : (يا أيها الناس) ، ومقاصد الخطاب هي طلب التقوى ، فإذا كان كذلك ، إذن فما علاقة تذكيرهم بأنهم مخلوقون لله ، أولا ، وثانيا كون هذا الخلق (من نفس

واحدة) ؟ في حين أن المخاطبين لاينفون خالقية الله لهم ؛ لوجود نصوص كثيرة في القرآن الكريم تثبت اقرارهم بخالقية الله ، من قبيل قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ... ٨٧﴾ [الزخرف: ٨٧]) وهذا في المنهج التداولي يعد خرقا لقاعدة الملائمة .

التوجيه :

فلما كان ما بعد هذا النداء جامعا لما يؤمر به الناس المؤمنين والكافرين على حد سواء، نودي جميع الناس، فدعاهم الله إلى التذكر بأن أصلهم واحد، وأنهم مخلوقون من نفس واحدة ، فكأنه يقول لهم إن هذه المشتركات في الخالقية والأصل تقتضي الامتثال والإنصياع لخالقكم الواحد الذي خلقكم من أصل واحد .

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن عاشور ، وغيره من المفسرين (٢١) ، فكانت مجمل توصياتهم تتمثل في مقاربة لما عليه مبدأ التعاون التداولي وقواعده الفرعية .

٤ـــــ قاعدة الجهة

قاعدة الجهة هي القاعدة الرابعة من القواعد التي فرعها بول غرايس على مبدأ التعاون وتنص هذه القاعدة على ضرورة الوضوح في الكلام ، ثم فرع منها أربع قواعد ثانوية هي عبارة عن توجيهات لمنشئ الخطاب (٢٢) ، وهذه التوجيهات :

أ ـــ لتحترز من الالتباس . وهذه التوصية ترشد المتكلمين والمستمعين إلى توخي نقطة التقاء في لغتهم ولهجتهم الخاصة ، وهذه التوصية ترشد طرفي الخطاب إلى الوقوف عند ما هو مشترك بينهم في لغة الاستعمال .

ب ـــ لتحترز من الإجمال ، وهي توصي بعدم استعمال عبارة ملبسة ، وفي حال حصل اللبس ، فعليهم أن يحصروها بتأويل محدد .

ج ـــ لتتكلم بإيجاز ، وهي توصية للمتكلم بأن إذا دار الأمر بين عبارتين ، فعليه اختيار أكثرهما إيجازا ، وقربا من السياق .

د ـــ لترتبْ كلامك ، وهذه توصي مؤول الخطاب بأن يعطي أهمية لأدوات الربط بين الملفوظات ، والكلمات . كأدوات العطف ، والإحالات والتقديم والتأخير ، وغير ذلك .

استراتيجية الجهة

وردت نصوص كثيرة في الخطاب القرآني تحتوي على خرق لقاعدة الجهة، وهي تمثل استراتيجيات ومنها :

١ـــ قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم ...) ، فكان الخطاب في سياق بيان وظائف وخصوصيات نساء النبي ، وهو عبارة عن أفعال كلامية توجيهيه تتضمن إحالات كلها تشير إلى نساء النبي دون أهل بيته ، وذلك من قبيل : (لستنَّ ، قرنَ ، بيوتكنَ ، لاتبرجنَ ، أقمنَ ، آتينَ ، أطعنَ) ، كلها إحالات تحيل على نساء النبي (صلى الله عليه وآله) . وتمام النص هو : (يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) ، وفي الأثناء قطع الخطاب الذي يحيل على نساء النبي ، وانتقل إلى خطاب آخر يحمل إحالة مختلفة عن التي قبلها ، وهذا الاختلاف في الإحالات يعد خرقا لقاعدة الجهة ، فقال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) فهنا اختلف الخطاب من أفعال كلامية إنجازية ، تأثيرية (*) المخاطب بها نساء النبي ، إلى فعل كلامي توصيفي يكشف عن إرادة هذا الفعل من الله مباشرة ، كذلك اختلف الخطاب في الإحالة من نون النسوة إلى إحالة الضمير (كم) ، ثم عقَّبه بذكر المحال عليه وهم (أهل البيت) ، بعد أن كان المحال عليه في نفس السياق هو (نساء النبي)؛ وفي هذا إشعار للمتلقي أن السياق قد انقطع ، فقال : (إِنَّمَا

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)) ثم عاد إلى السياق السابق ، فقال : (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ، فعاد إلى الأفعال الكلامية التي توجه نساء النبي بإحالة نون النسوة .

وقد كان للمفسرين آراء كثيرة لايسع هذا المختصر لذكرها ومناقشتها ، ولكن ما يعني البحث أن في هذا الخطاب خرقا لقاعدة الجهة التي تلزم المتكلم بترتيب كلامه ، وكذلك توصي مؤول الخطاب بأن يعطي أهمية لأدوات الربط بين الملفوظات ، والكلمات . كأدوات العطف ، والإحالات والتقديم والتأخير ، وغير ذلك (٢٣) ، وهذا الخرق يشتمل على مقاصد يراد منها الفصل مابين نوعين من المخاطبين ، لكل منهما صفاته ووظائفه ، فكان خطاب النساء مشروطا بالتقوى (إن اتقيتنَّ) ، في قبال (أهل البيت) وأن صفتهم هذه كانت محصورة عليهم وحدهم ، وهي حاصلة من من قبل الله تعالى وبإرادة منه (إنما يريد الله). فهذا في تأليف الكلام ونظمه يعد إشكالية ، ولكن بما أن منشئ الخطاب متعاون إلى أقصى حد ، فيترجح أن وراء هذا التداخل الخطابي استراتيجية قد لاتتأدى إلا بهذا النوع من الاستعمال التداولي .

٢ــــ ومن خرق قاعدة الجهة قوله تعالى حكاية عن عزيز مصر (وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ سورة يوسف آية ٢٩، فملفوظ (من الخاطئين) فيه خرق لقاعدة الجهة ؛ لأن المناسب أن يقول : (إنك خاطئة) ، أو(من الخاطئات) ، ففي هذا الخرق لقاعدة الجهة استراتيجية اتخذها العزيز . وللمفسرين آراء في توجيه هذه الاستراتيجية ، في مجملها أنه يقصد إلى إبعاد هذا الفعل الذي صدر من امرأته ، على الأقل أنها لم تكن هي الوحيدة التي يصدر منها مثل هذا الفعل ، وفي هذا الابعاد والإشراك مع الآخرين تهوين للأمر .

فقد تساءل المفسرون ، وأجابوا على أسئلتهم ، ومن بينهم الفخْر الرازي الذي جعله منَ التغْليب ، ويستفاد من التغليب العموميات . وكذلك أجاب الطبري بأن قال : " لم يقل: من الخاطئات، لأنه لم يقصد بذلك قصد الخبر عن النساء، وإنما قصد به الخبر عمَّن يفعل ذلك فيخطأ " ، (٢٤) وفيه تخفيف من لحوق العار .

٣ــــ ومن خرق قاعدة الجهة ، قوله تعالى : (ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ) /البقرة ، آية٢٥٧، فتأليف الكلام يقتضي مقابلة المفرد بالمفرد والجمع بالجمع ، يعني (الله ولي الذين آمنوا ، يقابله : الذين كفروا وليهم الطاغوت) ، ولكنه في هذا الخطاب عدل عن المطابقة ، وفيه مخالفة لقاعدة الجهة باختلاف الإحالات بين (وليهم ، وأولياؤهم) ، فما هي المقاصد ؟ يرى التداوليون إن خرق قاعدة من قواعد التخاطب يستدعي قصدية للمتكلم لم تحصل إذا أبقى على القواعد التخاطبية ، وهنا قد يكون القصد هو الاحتراز من وضع الطاغوت في مقابلة الاسم الجليل ، وهذا ينسجم مع توجيه الآلوسي ؛ الذي يرجح أن " تغيير السبك للاحتراز عن وضع الطَّاغُوتُ في مقابلة الاسم الجليل " (٢٥) .

٤ــ ومن خرق قاعدة الجهة أن يأتي المتكلم بتلفظ في سياق لايساعد على تشخيص قصدية الخطاب ، ومنه قوله تعالى : (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) ، فما القصد من الفعل الكلامي (دع أذاهم) ؟ فلايعرف ، هل القصد (لاتؤذيهم) ، أم أن القصد (لاتبالي بأذاهم) ؟ ، اختلفت آراء المفسرين ، فمنهم من رجح القصد الأول ، ومنهم من رجح الثاني ، وثالث جمع بين القصدين (٢٦) ، وأما تذييل الآية بقوله : (... وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) ، ففيه خرق لقاعدة الكم ، ويدخل هذا في مورد تداخل القواعد (٢٧) ، وقد ساعد هذا التداخل على إخفاء قصدية النص ، والمقصود من قوله (دع أذاهم) ؟ ذهب كل من الطبري، والألوسي إلى أن المراد بالآية المعنى المجازي أي أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك، ولا تشتغل به، فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل. أي : أنت لاتعمل على إيذائهم انتقاما .

ويرى كل من الرازي وأبو حيان وابن كثير أن الآية تقصد المعنى الحقيقي ، أي : أمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم، والصفح عن زللهم، فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول ، وأما ابن عاشور فقد رجح كلا القصدين ، بأن حمل النص على كلا المعنيين، فيكون الأمر بترك أذاهم صادقاً بالإعراض عما يؤذون به النبي (صلى الله عليه وآله) ، بمعنى : لاتؤذيهم انتقاما لنفسك ولاتشغل نفسك بإيذائهم إياك ، ويبدو أن ابن عاشور استفاد من سياق ذيل الآية (... وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) ، وهو عبارة عن فعل كلامي توجيهي للنبي (صلى الله عليه وآله) بأن يلتجأ إلى الله في كل الأحوال . وما هذا الاختلاف والتوجيهات المتباعدة تارة والمتقارب أخرى إلا لخرق قاعدة الجهة التداولية بسبب اختيار الملفوظ الذي لا تظهر قصدية المتكلم منه .

الخاتمة

إن هذه المسيرة الموجزة للبحث التي سار في أثنائها بين المفاهيم التداولية المتمثلة في خرق قواعد التخاطب وبين النص القرآني المبارك ومعالجة المفسرين له توصل إلى النتائج التالية.

١ــــ إن كمية الحوار التي يُعد تجاوزها خرقا لقاعدة المكم يحددها السياق .

٢ــــ إن خرق قواعد التخاطب عبارة عن استراتيجيات لمنشئ الخطاب قد لايمكنه تحقيقها إلا بخرق إحدى هذه القواعد .

٣ــــ اتضح أن القواعد الثانوية المتفرعة عن كل قاعدة هي عبارة عن توصيات تداولية وليست قواعد تركيبية / نحوية تتعلق بنظام اللغة ، بل يفرزها الاستعمال .

٤ــــ إن التدبر في الخطاب القرآني يوصل إلى استنتاج مفاده أن خرق قواعد التخطب هي سمة بارزة في الخطاب القرآني .

٥ــــ تبين لنا أن خرق القواعد لا يعني خرق النظام اللغوي النحوي ، بل هو انصراف من نظام الى آخر تبيحه قواعد اللغة .

٦ــــ إن الدافع الأساس لخرق القواعد هو الاستراتيجيات التي يتبناها منشئ الخطاب والتي لا تؤدى إلا بخرق القواعد والتصرف بها

الهوامش

[١] ــ ينظر : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، د . طه عبد الرحمن : ٢٣٧ .

[٢] ــ ينظر : التداولية أصولها واتجاهاتها ، جواد ختام : ٩٩ .

[٣] ــ ينظر : استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري : ١٢٠ .

[٤] ــ ينظر : التداولية ، جورج يول ، تر : د . قصي العتابي : ٦٨ .

[٥] ــ ينظر : مدخل إلى دراسة التداولية مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل ، فرانثيسكويوس راموس ، تر: يحيى حمداي : ٥٠ .

[٦] ــ الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، العياشي أدراوي : ٩٩ .

[٧] ــ ينظر : المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية ، ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجا ، ليلى كادة (أطروحة) ، الجزائر ، جامعة الحاج لخضر ــ باتنة : ١١٦ .

[٨] ــ ينظر : معاني القرآن وإعرابه ، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) تح: عبد الجليل عبده شلبي ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) : ١٨٦/٤.

[٩] ــ نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد ، أبو العباس البسيلي التونسي (ت٨٣٠ه) ، تح : أ . محمد الطبراني ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) : ٦٩/٢ .

[١٠] ــ ينظر : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي : ٢٣٨ .

[11] ــ ينظر : نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد : ٢٠٨/٢.
[12] ــ ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي تصحيح : علي عبد الباري عطية ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) : ٥/ ١٨٨.
[13] ــ ينظر : استراتيجيات الخطاب ، الشهري : ١٢٢ .
[14] ــ ينظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه ، مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني الأندلسي القرطبي المالكي (ت ٤٣٧هـ) ، تح : مجموعة رسائل جامعية ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) : ٦/ ٤٢٢٠، وينظر : صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) :" ١٦٣/٢ .
[16] ــ ينظر : تفسير الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ه) ، تح : د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) : ١٤/ ٦٥٠.
[17] ــ ينظر : التداولية عند العلماء العرب ، د . مسعود صحراوي : ٣٦ .
[18] ــ ينظر : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي : ٢٤٧ .
[19] ـــــ التحرير والتنوير ، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ) : ١٢/ ٢٧١ ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع).
[20] ــ ينظر : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي : ٢٤٦ .
[21] ــ ينظر : التحرير والتنوير : ٤/ ٢١٤.
[22] ــ ينظر : مدخل إلى دراسة التداولية مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل : ٩٠ .
* ــ قُسِمَ الفعل الكلامي إلى (١) فعل لفظي ، ويقصد به النطق بالأصوات اللفظية منتظمة بتركيب نحوي صحيح ، (٢) فعل إنجازي ويقصد به ما يؤديه الفعل اللفظي كالأمر والنصح (٣) الفعل التأثيري ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي (ينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، أحمد نحلة : ٦٨) .
[23] ــ ينظر : مدخل إلى دراسة التداولية مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل : ٩٠ .
[24] ـــــ تفسير الطبري : ٦٢/١٦، وينظر : نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد : ٢٥١/٢ .
[25] ـــــ : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ١٥/٢ .
[26] ــ ينظر : قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير / دراسة تأصيلية تطبيقية ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) ، إعدادعبير بنت عبد الله النعيم : ٢٤٣.
[27] ــ ينظر : الاستلزام الحواري في التداول اللساني : ١٠٢ .

المصادر

ـــــ القرآن الكريم
ـــــ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد ، ط١، ٢٠٠٤م .
ـــــ الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، العياشي أدراوي ، منشورات الاختلاف ، دار الأمان ، الرباط ، ط١، ٢٠١١م .
ـــــ التحرير والتنوير ، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ه) ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) ، ١٩٨٤م .
ـــــ التداولية أصولها واتجاهاتها ، جواد ختام ، كنوز النعرفة للنشر والتوزيع ، عمَّان ، ط١، ٢٠١٦.

ـــــ التداولية ، جورج يول ، تر : د . قصي العتابي ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، عين التينة ، لبنان ، ط١، ٢٠١٠م .
ـــــ التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، د . مسعود صحراوي ، دار الطليعة ، بيروت / لبنان ط١ ، ٢٠٠٥م .
ـــــ تفسير الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ه) ، تح : د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، القاهرة / مصر ط١، ٢٠٠١م المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) .
ـــــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠م) ، تصحيح : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط١ ، ١٩٩٤م ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) .
ـــــ صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة / مصر ، ط١ ، ١٩٩٧م ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) .
ـــــ قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير / دراسة تأصيلية تطبيقية ، إعدادعبير بنت عبد الله النعيم ، دار التدمرية ، الرياض / المملكة العربية السعودية ، ط١ ، ٢٠١٥م ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) .
ـــــ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، د . طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء / المغرب ، ط١، ١٩٩٨م .
ـــــ مدخل إلى دراسة التداولية مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل ، فرانثيسكويوس راموس ، تر: يحيى حمداي ، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع ، العراق ، ط١ ، ٢٠١٤م .
ـــــ معاني القرآن وإعرابه ، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) ، تح : عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، بيروت / لبنان ط١ ، ١٩٨٨م .
ـــــ المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية ، ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجا ، ليلى كادة (أطروحة) ، الجزائر ، جامعة الحاج لخضر ــ باتنة .
ـــــ نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد ، أبو العباس البسيلي التونسي (ت٨٣٠ه) ، تح : أ . محمد الطبراني ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، ط١ ، ٢٠٠٨م المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) .
ـــــ الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه ، مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني الأندلسي القرطبي المالكي (ت ٤٣٧هـ) ، تح : مجموعة رسائل جامعية ، الناشر مجموعة بحوث الكتاب والسنة ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة الشارقة ، ط١ ، ٢٠٠٨م ، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع) .